حول قضية فلسطين :

والآن أيهـــا العرب

أما تزالون تنتظرون ؟!

للأســـتاذ سيد قطب

قصة العرب مع الاستعمار الانجليزى فى فلسطين هى بعينها قصتهم معه فى كل بلد عربى آخر ؛ وخديعة الاستعمار الانجليزى للعرب فى فلسطين هى خديعته الخالدة لكل بلد عربى آخر .

وتسميتها قصة هى فى الواقع تجوز ، فهى فى حقيقة الأمر مأساة ألمية متكررة ، وأشد ما يؤلم فيها هو هذا التكرار الذى لا يفتح عيون العرب على الخديعة ، ولا يغير طريقهم التى سلكوها فخابوا فى كل مرة ، ولا يجنبهم الجحر الذى لدغوا منه بدل المرة مرات .

هى مأساة الثقة بالضمير الانجليزى ، بل مأساة الاعتقاد بأن هناك ما يسمى الضمير الانجليزى ! وذلك هو الجحر الذى لدغ العرب منه مرات ، فى كل بلد عربى ، ثم هم مع ذلك لا يتوقونه ، فيصدق عليهم الحديث : « لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين » وحاشا لهؤلاء أن يكونوا مؤمنين ، وهم فى كل يوم يلدغون !

حفنة من الساسة قعدت بهم عن الجهاد مشقات الجهاد ، فاختاروا لشعوبهم الطريق الأهون ، والخطة السهلة ؛ وراحوا يضيعون أوقات الشعوب بالمؤتمرات والمفاوضات والمحادثات ؛ ودعوا الشعوب للهدوء والانتظار فى ارتقاب النتائج من هذه الطرق الهينة المأمونة .

وكان من غضب الله على هذه الشعوب أنها سمعت كلام أولئك الساسة الضعفاء المهازيل ، واستجابت لدعوة الراحة والدعة ، « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » .

تكررت هذه المأساة فى مصر ، كما تكررت فى فلسطين ، كما تكررت فى كل بلد عربى دنسته أقدام المستعمرين الطغاة . وهب الشعب فى مصر ، كما هب فى فلسطين ، كما هب فى كل بلد عربى يكافح هذا الاستعمار البغيض ، يكافحه كما ينبغى أن يكافح. يكافحه بالدم المبذول ، والروح المسترخصة ، والتضحية بالنفس والمال .. وكان هذا هو الطريق الصحيح . الطريق الذى سلكته من قبل الولايات المتحدة ، وإرلندا الحرة ؛ كما سلكته أخيراً سورية الأبية ، ولبنان الأشم .

وبينما الشعوب فى فورتها ، والتضحية فى غلوائها ، صاح عليها الأغرار المشئومة : حسبك أيتها الشعوب فقد أديت واجبك حسبك ودعى الأمر لأولى الأمر . دعيه للساسة يعالجونه بالحكمة والدبلوماسية ، بعد ما عالجته بالدماء والتضحية !

ومنذ هذه اللحظة المشئومة وقضايا العرب تخسر فى كل مكان ، ومنذ هذه اللحظة المشئومة والاستعمار يكسب فى كل مكان . لقد التقط الاستعمار أنفاسه بعد الجهد العنيف ، بعد ما كاد يسلم للشعوب بحقها المغصوب . ولكن لماذا يسلم ، وهؤلاء جماعة من هذه الشعوب يخدرونها لتنام ، ويروّحون على وجوهها لتنعس ، ويلوحون لها بالأحلام الجميلة لتستغرق فى الأحلام الجميلة ؟

ألا قاتل الله اللحظة المشئومة التى استسلمت فيها الأمم العربية لهذه الغربان المشئومة !

والآن أيها العرب . أما تزالون تنتظرون .

فأما مصر فقد هداها الله إلى نصف الحق ، هداها إلى قطع المفاوضات والمحادثات والمداولات . هداها إلى الخروج من تلك الدائرة البغيضة التى دارت فيها ودارت خمسة وعشرين عاماً كما يدور ثور الساقية ، أو حمار الطاحون !

ولكنه لم يهدها بعد إلى النصف الآخر . لم يهدها إلى أن زمام الأمر فى يدها هى لا فى يد هيئة الأمم المتحدة ، ولا فى يد مجلس الأمن ، ولا فى يد محكمة العدل الدولية ، ولا فى يد كائن من كان على ظهر هذه الأرض إلا المصريين !

لم يهدها إلى أنها تخطو إلى منتصف الطريق عند ما تلجأ إلى هذه الهيئات الدولية ؛ فأما نصفها الآخر . نصفها المؤدى إلى الغاية ؛ فهو أن تعزم على الاستقلال فى ضميرها ، وأن تنبذ العبودية من روحها ، وأن تطهر دماءها من لوثة الذل الذى فيها . وأن تنبز على سواء إلى هذا الاستعمار فتواجهه بنفسها مواجهة من اعتزم وصمم وانتهى .

ولو فطنت مصر لنظرت فى تطهير المصالح المصرية من كل موظف انجليزى منذ هذا الصباح . وفى تطهير الاقتصاد المصرى

من كل نفوذ انجليزى منذ هذه الليلة . وفى تطهير التعليم المصرى من كل أثر انجليزى دسه الاستعمار على نظمه وبرامجه وكتبه ، وحقائقه التاريخية والجغرافية . وفى تطهير الحياة المصرية من كل ما هو انجليزى مهما اشتدت حاجتنا إليه .

ولو فعلت مصر لرفض أى مصرى أن يخاطب أى انجليزى على ظهر الوادى ولو للسلام العابر . ولأغلقت منذ اللحظة ذلك النادى العجيب الذى يسمى النادى المصرى الانجليزى ، ولأعدمت جميع المصورات الجغرافية التى تكتب ذلك العنوان الآثم : « السودان المصرى الانجليزى » وجميع كتب التاريخ فى أيدى التلاميذ التى تتحدث عن « الاصلاحات التى تمت فى عهد الاحتلال » !

ولو فعلت مصر لأطلقتها من الأعماق صيحة عداء مدوية للبرابرة المستعمرين . ولأعلنت أنها ستلقن ناشئتها ذلك العداء ، وستسقيهم إياه مع الرضاع !

ولو فعلت مصر لأرسلت دعاتها كالبشرين فى كل مكان على ظهر هذه الأرض يفضحون مساوىء الاستعمار ، ويتحدثون عن مآسيه الوحشية ، ويكشفون للعالم عن فجائع دنشواى والعزيزية و ٤ فبراير ، وعشرات من هذه المآسى التى يقشعر لها ضمير الإنسانية فى كل مكان .

ولو فعلت مصر لسكتت صيحة الحزبية الحقيرة الخسيسة التى تهتف بها الأحزاب التى شاخت ، ويلوكها الجيل الذى أنتن ، ويرددها الرجال الذين لم ينسحبوا فى الوقت المناسب من الميدان !

ولو فعلت مصر لأدرك الانجليز من فورهم أنها جادة فى هذه المرة لا هازلة ؛ ولاشتروا منها مصالحهم فى العالم وسمتهم بالثمن الذى تريد ؛ ولوجدوا ارضاء مصر أكسب لهم من تشبثهم باستعمارها وقد صرح العداء !

ولكن مصر تقف فى منتصف الطريق . تقف لأن الجيل الذى يقودها — فى الحكومة وفى المعارضة على السواء — هو الجيل الذى شاخ . الجيل الذى دعاها فى فورة الحماسة إلى الهدوء . الجيل الذى أفسد عليها طريقها حينما اختار الطريق الأسهل . طريق المفاوضة والمحادثة والمؤتمرات !

وأما فلسطين فقد فارت فورتها فى وجه الظلم الذى لم تعرف له البشرية شبيهاً . وكانت آخر فوراتها فى عام ١٩٣٨ . ورأى الانجليز أن الأمر جد لا هزل ، وأن الأمة العربية هناك لا تنوى التراجع ، ولا تبغى المهادنة . فلجأوا إلى وسيلتهم الخالدة . وسيلتهم التى جربوها فى مصر من قبل فعادت عليهم بالخير والأمن والهدوء ، دعوا فلسطين إلى مؤتمر المائدة المستديرة ! ودعوا معها العرب جميعاً . ومع الأسف صدقت فلسطين ، وألقت السلاح ، وانتظرت نتائج المائدة المستديرة !

ومن الإنصاف أن نذكر أن الخديعة فى هذه المرة لم تأت عرب فلسطين الأباة من جهة الإنجليز ، إنما جاءتهم من جهة من يسمونهم الزعماء ، الزعماء هنا فى مصر وفى بعض البلاد العربية . وخدع العرب الأباة بذلك الكتاب الأبيض الذى أسفر عنه المؤتمر . وجاءت الحرب فوقفوا فى صف انجلترا هم وسائر العرب فى بلاد العرب .

وقيل لهم : إن الانجليز سيعرفون لهم فضل مناصرتهم فى ساعة العسرة فصدقوا . وكانوا بلهاء حينما صدقوا ! واشترك فى خديعتهم أولئك الساسة والأدباء والكتاب والصحفيون المثقفون والمأجورون الذين راحوا يشيدون بالديمقراطية ، والمدافعين عن الديمقراطية !

ثم وضعت الحرب أوزارها ، وهب الإرهابيون اليهود يجلدون الانجليز فى الشوارع ، وينسفون مقر القيادة الانجليزية ، ويخطفون القضاة والقواد ؛ ويطلقونها صيحة مدوية : فلسطين لليهود !

وقيل للعرب : اسكتوا واصمتوا واطمئنوا . فقد وقع الصهيونيون فى شر أعمالهم ، وسينالون عداء الانجليز ، ما فى ذلك شك ، وسيجازيهم الانجليز على ذلك بالتمكين للعرب فى فلسطين !

وقيل للعرب : حذار من أن تكونوا حمقى كاليهود . كونوا « عقلاء » أيها العرب لتكسبوا مودة الانجليز . . . قالها لهم أولئك الساسة الذين اختاروا من أول الأمر طريق المفاوضات والمحادثات والمؤتمرات ، استسهالا واستغلالا !

وصدق العرب الساكنين ، منطق ساستهم المخنثين ! وباتوا « عقلاء » عقلاء جداً ؛ لا يحركون ساكناً ، ولا يرفعون صوتاً ولا يمكرون صفواً .

وبدأ الانجليز يحنقون على الإرهابيين ، ويميلون للعرب . . . فألغوا سياسة الكتاب الأبيض ، وسمحوا بالهجرة اليهودية بعد ما انتهى الأجل الذى حدده للهجرة ذلك الكتاب ! ثم دعوا العرب واليهود إلى مؤتمر فى لندن لوضع حل حاسم لقضية فلسطين